**محاضرات**

**في علم الكلام**

**أ.م.د. مسعود محمد علي**

**جامعة صلاح الدين/كليَّة الآداب/قسم الفلسفة**

**المحاضرةُ الأولى**  
 **العلاقة بين الدين والفلسفة**

**المحاضرة تتكوَّن من محورَين أساسيين:** :   
**1ـ نقاطُ الاتفاقِ بين الفلسفة والدين من خلال: :   
أـ الفلسفة وما تشتمل عليها من العلوم. .  
ب ـ الشريعة وما تشتمل عليها من العلوم. .   
2 ـ نقاطُ الخلافِ بينهما، تعريفُ الإلهِ نموذجاً. .  
 لكن قبل البدء نشير إلى موقف بعض علماء الغرب حول الفلسفة الإسلامية. .**

**موقف بعض علماء الغرب حول الفلسفة الإسلاميةِ :**  
 يقول بيرتراند رسل في كتابه "تأريخ الفلسفة الغربية" - الذي كُتِب عام 1945- بأن: "**الفلسفة العربية ليست مهمَّةً كفكرةٍ أصليَّةٍ. الرجالُ أمثالُ ابنُ سينا ​​وابنُ رشدٍ هم بصورةٍ أساسيَّةٍ مُعلِّقِين**". .  
**أو يقال:** :  
 ماتتِ العقلانيَّةُ والفلسفةُ مع ابن رشد في نهايةِ القرنِ الثاني عشرَ كما لا زال يُعتَقَد على مرِّ التاريخِ الإسلاميِّ. .

**ما الدافع لهذا التصوُّر؟:** :  
 من الدوافع هو أنَّ الإجابةَ عن الأسئلة ــ في بداياتِ علمِ الكلامِ خاصةً ــ بصِيَغٍ شفويةٍ قد تَقبلها جميعُ الأطراف أي: بشكلٍ سهلٍ غيرُ مصوغٍ على قانون الاستدلال، بدلاً من الخوض بشكل أعمق للعثور على إجابةٍ مرضيَّةٍ ومباشرةٍ للغاية، لكنَّ هذا الـمَيْلَ تقلَّص إلى حدٍّ ما في أدبِ علمِ الكلامِ اللاحق.

**سببٌ آخرُ:** :  
 بالطبع، هناك الكثير من الناس الذين لا يُـحبون فلسفةَ العصورِ الوسطى وذلك بسببِ سياقها الدينيِّ بالتحديد. .  
 إذْ كانت فصولُ الفلسفةِ في العصور الوسطى مكرَّسةً في الغالب لشخصياتٍ تَعتَبِر نفسَها "لاهوتيةً" مثلِ: :  
 أسقُفِ كانتربري أنسلم، والراهبِ توما الأكويني، ودانز سكوطس، والأخوي وليم الأوكامي. .   
 ولم تمتِ العقلانيةُ والفلسفةُ مع ابن رشد كما نرَى عديداً من الشخصيات ذاتَ الأهميةِ وغير المتعلِّقة بمؤرِّخ الفلسفة أرسطو، بل كانت من ممارسي "علم الكلام". كالغزالي والرازي. .

**المحور الأول: علوم الفلسفة: :** الحكمةُ ـ وهي الفلسفةُ ـ لها مفهومٌ جامعٌ يَشمل العلومَ كلَّها ـ كما سيأتي. .

**تعريفُ الفلسفة:** :  
 الحكمة: علمٌ يَبحثُ عن أحوالِ الموجوداتِ الخارجيَّةِ على ما هي عليه في الواقع بقَدَرِ الطَّاقةِ البشريَّةِ. .  
 وأيُّ علمٍ يبحث عن أحكامٍ حقيقيَّةٍ واقعيَّةٍ فهو داخلٌ في الفلسفة الحقيقيَّة. .  
 وبما أنَّ الشريعةَ علمٌ من العلوم فهو يبحث عن أحكامٍ واقعيَّة، فمن هذه الناحية لا صِدامَ بين الفلسفة والشريعة. .   
 **وبهذه المناسبة نبحث ههنا عن الحكمة وأقسامها.**

إنَّ(الحكمةَ) تنقسم إلى قسمَين انقساماً أوَّليَّاً أي: بشكلٍ عامٍّ:

**القسم الأوَّل: الحكمة العمليَّة.** .  
**القسم الثاني: الحكمة النظريَّة.** .  
بدايةً نسأل: لماذا تنقسم إلى هذَين القسمَين؟ .  
 لأنَّ الموجوداتِ والأعيان التي يُبحث عنها في الحكمةِ لا تخلو من حالَتَين: :  
 إمَّا أنْ تكونَ أفعالاً تَحدث بقدرتنا واختيارنا، أوْ لاَ. .  
 فمعرفةُ أحوال القسمِ الأوَّل تُسمَّى بالحكمة العمليَّة، ومعرفةُ أحوالِ الثاني ـ وهو الأحوال التي ليس وجودُها بقدرتنا واختيارنا ـ تُسمَّى بالحكمة النظريَّة.

**ثمَّ لكلٍّ من هذَين القسمَين ثلاثةُ أقسامٍ: :  
 أمَّا العمليَّة:** فلأنَّها إمَّا أنْ تكونَ علماً بإصلاح الفرد كفردٍ ويُسمَّى تهذيبُ الأخلاق. .  
 وإمَّا أنْ تكونَ علماً بإصلاح جماعةٍ ومصلحتهم يتشاركون في السكن، ويُسمَّى تدبيرُ المنزل. .  
 وإمَّا أنْ تكونَ علماً بمصالح جماعةٍ مشتركةٍ في بلدةٍ أو دولةٍ ويُسمَّي السياسة المدنيَّة. **فهذه ثلاثةُ أقسامٍ للحكمةِ العمليَّة.**

**وأمَّا النظريَّة:** وهو الأحوال التي ليس وجودُها بقدرتنا واختيارنا؛ **لماذا؟**.

لأنَّها إمَّا علمٌ تتحدَّث عن أحوال ما لا يفتقر إلى المادَّةِ أصلاً، لا في الوجود الخارجيِّ ولا في الوجود الذهنيِّ، **ويُسمَّى بالعلم الإلهيِّ.**

وإمَّا علمٌ تتحدَّث عن أحوالِ ما يفتقر إلى المادَّة في الوجود الخارجيِّ، دون الوجود الذهنيِّ، **ويسمَّى بعلمِ الرضيَّات** كالهندسة والحساب. .  
 وإمَّا علمٌ تتحدَّث عن أحوالِ ما يفتقر إلى المادَّة في الوجودين الخارجيِّ والذهنيِّ **ويُسمَّى بالعلم الطبيعيِّ. فهذه ثلاثةُ أقسامٍ للحكمة النظريَّة.**

**فللحكمةِ سِتَّةُ أقسامٍ، وهي:** :  
1ـ تهذيبُ الأخلاق. 4ـ العلمُ الإلهيُّ. .  
2ـ تدبيرُ المنزل. 5ـ العلمُ الرياضيُّ. .   
3ـ السياسةُ المدنيَّة. 6ـ العلمُ الطبيعيُّ. .  
 وهناك أقسامٌ أُخرى لهذه الأقسام السِتَّة، إلَّا أنَّ هذه الأقسام هي الأُصول. .  
**العلوم التي تبحث فيها الشريعة الإسلامية**: :

إنَّ الشريعة إنَّما بحثتْ من بين الأقسام الستَّةِ للحكمة، الأقسامَ الأربعةَ فقط، أي: **بَقِيَ قسمٌ من الحكمة النظريَّة وهو: العلمُ الإلهيُّ.**

**فالمبحوثُ عنه في الدين هو: :** 1ـ **العلمُ الإلهيُّ** ومن فروعِه مباحثُ الوحيِ، والنبوَّةُ، والقيامةُ، وأحوالُ المَعاد. ويُسمَّى بـ(علم العقائد). . **2ـ الحكمةُ العمليَّة، وتُسمَّى بـ(الفقه) وهي: :  
 أـ الأخلاق = تهذيبُ الأخلاق. .  
 ب ـ المعاشراتُ أو آداب الأُسرة = تدبيرُ المنزِل. .  
ج ـ المعاملاتُ = السياسة المدنيَّة. .  
د ـ وزاد فرعاً رابعاً وهي العبادات،** قد أضافتِ الشريعةُ(العباداتِ) التي لم تتوصَّلْ إليها الفلاسفةُ، لأنَّها آداباً خاصَّاً بالخالق لا تُقرَّر بدون أمره وتعليمه، وهذا التعليمُ هو الوحيُ.

هنا نتساءل: لماذا لم تَبحثِ الشريعةُ علمَ الرضياتِ وعلمَ الطبيعةِ بشكلٍ رئيس؟!.  
 الجواب: لَمَّا لم يكنِ العِلْمانُ أيَّ دخلٍ في حقوقِ الخالق والمخلوق، لم تَبحث عنهما الشريعةُ قصداً وبالذات. .  
 وما يُذكَر في الكتاب والسنة من بعضِ مسائل العلم الطبيعيِّ فإنَّما هو للاستدلال على قضيةٍ من قضايا علم الإلهيات. .   
 ولذلك يَتبعُه في أكثر المواضع أمثال قولِه تعالى:[لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ]آل عمران:199، وغير ذلك. .  
 مثلاً يقول:[يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ] ويتبعُه بقوله:[إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ]النور:44، حيث جاء للاستدلال على قدرته تعالى. وليس الغرضُ هو إعدادُ التقويمِ.

**تعريفُ الدين موجزاً:** :  
 إنَّ كلَّ دينٍ سماويٍّ له جزءان أساسيَّان: جزءٌ يتعلَّق بقلبِ الإنسان، وجزءٌ آخرُ يتعلَّق بجوارحِه: :  
 **فالأَوَّل: علمٌ** يُطلَق عليه: الإيمان ـ أي: العقيدة ـ. **والثاني:** يقال له: العملُ.   
 والثاني ـ أي: العمل ـ: إمَّا العلمُ بمعاملةِ الإنسان مع اللهِ، ويُسمَّى العبادات ـ بالمعنى الخاص ـ. .   
 أو العلمُ بمعاملَتِه مع بني جنسِهِ في الشؤونِ المنزلية ويُسمَّى نظام الأسرة ـ أي: تدبير المنزل ـ. .  
 أو العلمُ بمعاملَتِه مع بني جنسِهِ في الشؤونِ الإجتماعية ويُسمَّى المعاملاتِ ـ أي: السياسة المدنية ـ. .  
 أو العلمُ بمعاملتِه مع نفسه وغيره كانسانٍ ويُسمَّى الأخلاقَ.

**المحور الثاني: نقاط الخلاف بين الدين والفلسفة، مفهوم الإله نموذجاً: :  
غايةُ الدينِ والفلسفةِ: :**  
 مقصدُ الفلسفةِ النظريِّ هو معرفةُ أصلِ الوجودِ، ومطلبُ الفلسفة العمليِّ: معرفةُ السعادةِ الإنسانيَّةِ في العاجل والآجل. هذان هما موضوعَا الفلسفةِ بقسمَيْها العلميِّ والعمليِّ. .  
  
 وهما كذلك موضوعَا الدينِ بمعناه الشامل للأصولِ والفروع، فالأُصول، أي: العقيدة تَبحث عن أصلِ الوجود وغايتِه، والفروع، أي: الفقه يبحث عن الأحكام العمليَّة الباعثة للسعادة الإنسانيَّة. .   
   
 **غير أنَّ الاتِّحادَ في موضوعِ البحثِ لا يعني دائماً الاتِّفاقُ على نتائجِه.** .

**معنى الإله بين الفلسفة والدين:** :  
 تنفصل الفلسفةُ في معنى الإله عن الدياناتِ في مرحلةٍ أو أكثرَ، **وأهمُّها عنصران:** :  
  
 **العنصر الأوَّل: عنصرُ بدءِ الخلقِ**، أي: إحداثُ المادَّةِ من العدمِ، وهو مبدأٌ تعترِف به جميعُ أتباع الدين السماوي، في حين أنَّ قدماء اليونان كان يَرى أنَّ المدبِّرَ للعالَم لم ينشأْ هذا العالَمَ من العدم. .   
   
 فالخالقُ في نظرِهم ليس بارئاً ـ أي: موجِداً من عدمٍ ـ، بل هو كمهندس ماهرٍ رتَّب الكونَ ليس غيرُ.

وكذا معنى الصانع عندهم هو أنَّ الأرضِ والسماءِ في غنى عن المُبدِعِ ولا حاجةَ بها إلى شيءٍ غيرِ التركيبِ والتنسيقِ. .

**العنصرُ الثاني:** عنصرُ الربوبيَّة أو(العناية المستمرَّة)، فإنَّ الأديان كلَّها قائمةٌ على فكرةِ التمجيد لِقديرٍ له عنايةٌ دائمةٌ بالكائناتِ، وذلك هو أصلُ فكرةِ العبادةِ التي لا يتحقَّق اسمُ الديانةِ دونها. .   
 أي: العلاقة بين محاور الوجود (الله تعالى، الإنسان، الكون) بالإضافة إلى مفهومي الاستخلاف والتسخير. .  
 أمَّا الفلسفات التي تؤمن بالخالقيَّةِ مَثلُه كمَثلِ المهندسِ البنَّاءِ حين يفرُغ من رسمِ البيتِ وبنائِه، ويصبح لا شأنَ بعنايتِه وتدبيرِه. .   
 إذْ إنَّ أكثرَها كان يَرَى أنَّ صلةَ الإلهِ بالعالَمِ هي صلةُ العلَّةِ الأُولَى والسببُ البعيدُ الَّذي أدَّى عملَه وانتهتْ مهمَّتَه. .

**إشارةٌ إلى الفلسفة الماديَّة:** :  
 والأغرب مما سبق هو أننا نجدُ كثيراً من المذاهبِ الفلسفيَّةِ قد انفصَل عن الدين من أوَّلِ الطريقِ. .   
 وأشدُّ هذه المذاهبِ انفصالاً، وأكثرُها بُعْداً، هي المذاهبُ الماديَّةُ التي لا تَعترِفُ بشيءٍ في الوجودِ وراء الحسِّ والمشاهدةِ. .  
 فتُنكِر بذلك مبدأً رئيساً مشتركاً تقوم عليه جميعُ الأديانِ، وتُقرُّه سائرُ الفلسفات. وهو مبدءُ الإلهيَّة للكون. .  
 **فالمبحوث عنه فيما سيأتي من تلك العلوم المذكورة هو العلم الإلهيُّ المسمَّى بـ(علم الكلام). .**

**المحاضرةُ الثانيةُ**

**تعريف علم الكلام  
 حسب الأدوار التأريخيَّة**

**تتكوَّن المحاضرة من أربعةِ مراحلَ:**

**الأُولَى: تعريفُ علم الكلام حسب عصر النزول.**

**الثانية: تعريفُه في مرحلةِ ظهور الفِرَق الكلاميَّة. .  
الثالثة: تعريفُه في مرحلةِ ترجمةِ الفلسفة اليونانيَّة. .  
الرابعة: تعريفُه في مرحلةِ القرن السابع عشر إلى الآن. .**

**تعريفُ علم الكلام :**هناك كثيرٌ من التعاريف قديماً وجديداً، يمكن أنْ نقسِّمَها حسب الفترات التأريخيَّة:

**تعريفُه في عصر النبوة:**

«الكلامُ: هو العلمُ بالعقائدِ الدينيةِ عن الأدلَّةِ اليقينيَّةِ. أو معرفةُ العقائد عن أدلَّتها». هذا هو كلامُ القدماء في عصرِ النُّبوَّةِ والصحابةِ.

**خاصيَّةُ علمِ الكلام في هذه المرحلة** عبارةٌ عن بيانِ العقائد بالدليل دون الخوضِ في الجدال الداخليِّ لقلَّته، ولرسوخِ إيمانِ مؤمني هذه المرحلةِ.

**إذن الخلافُ والمناقشةُ مع مَن؟**

إنَّما الخلافُ والجدلُ في العقيدة في هذه المرحلةِ مع المشركين وأهلِ الكتاب بإلزامِهم بما يُقرُّون به.

**تعريفُه في فترة الفِرق الإسلاميَّة:**

لم تستمرَّ المرحلةُ السابقةُ بل حدثتِ الفِتَنُ بين المسلمين، وظهر اختلافُ الآراءِ وحبِّ انتصار الذات وحبِّ الظهور..

علم الكلام كما يقول الغزاليُّ: هو علمٌ يَقصدُ:«حفظَ عقيدةِ أهلِ السنَّةِ وحراستُها من تشويشِ أهلِ البدعةِ». عن طريقِ إلزامِ الخصم بما يُقرُّون به.

وكذا عرَّفَه ابن خلدون:«وهو علمٌ يتضمَّن الحجاج عن العقائدِ الإيمانيَّةِ بالأدلَّة العقليَّة، والرُّدُّ على المبتدعةِ المنحرفين في الاعتقادات عن مذهبِ السلَفِ وأهلِ السنة».

**فإذن ما هي خاصيَّةُ هذه المرحلة؟**

الجوابُ: هدفُ علْم الكلام عند أهل السنَّة في هذه المرحلة لم يقف عند حدِّ البيانِ بل انتَقل منه إلى مرحلةِ الدفاع عنِ العقيدة حول الشُّبَهِ الداخليَّةِ، وعرَّفوا علم الكلام من حيث الفائدةُ والغايةُ.

**تصحيح خطأ حول ذمِّ علم الكلام:**

في هــــذه المرحــلة معظَمُ الخلافيَّاتِ مع الفِرَق الإسلاميَّة خصوصاً المعتزلة؛ لأنَّهم أوَّلُ فرقةٍ أسَّسوا قواعِدَ غريبة، منها جَعْلُ العقلِ حاكماً على النقل في بابِ العقائد.

ففي هذه المرحلة اختصَّ الاسمُ ـ أي: علْمُ الكلام أو أهلُ الكلام ـ بأهل البدعة، كما قال الرازي:«أمَّا تَشْدِيدُ السَّلَفِ عَلَى علْم الْكَلَامِ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى أهل الْبِدْعَةِ».

وبالأخص استعمالُ لفظ(أهلِ الكلام) في زمن السلف يُقصَد به المعتزلةُ، ويؤيِّد هذا ما ذكَره صاحبُ كتابِ الملَلِ والنِّحَلِ حيث قال:

«ثمَّ طالَع بعد ذلك شيوخُ المعتزلةِ كُتُبَ الفلاسفةِ حين فُسِّرتْ أيَّامَ المأمونِ، فخلَطتْ مناهجُها بمناهجِ الكلام، وأفردتْها فنَّاً من فنونِ العلْمِ وسمَّتْها باسمِ الكلام».

فإذن علْمُ كلامِ المعتزلة عبارةٌ عن الاستدلالِ العقليِّ لنصرةِ آراءٍ مخالفةٍ لمنهج السلف؛ فعلى هذا هو ليس علْمَ العقيدة بل هو مخالفٌ له.

فإذن ما ذمَّ علماءُ السلفِ علمَ الكلامِ مطلقاً بل كلامَ المبتدعةِ فقط؛ لأنَّ علمَ الكلام نوعان: مردودٌ، ومقبول؛ بدليلِ أنَّ الأئمةَ أنفسَهُم من أهلِ الاستدلال ضدَّ أهلِ الأهواء كما هو معلومٌ لدى أهلِه.

**مرحلة ترجمةِ الفلسفة اليونانيَّة:** :  
 يصفُ العلامة التفتازانيُّ في مقدمة شرح العقائد النسفيَّة هذه المرحلة فيقول:

«ثمَّ لَـمَّا نُقِلتِ الفلسفةُ اليونانيَّةُ إلى العربيَّة، ـ في عصر المأمون ـ، وخاض فيها الإسلاميُّون وحاولوا الردَّ فيما خالفوا فيه الشريعةَ، فخلَطوا بالكلام كثيراً ليتحقَّقوا مقاصِدَها، فيتمكَّنوا من إبطالها، وهلُمَّ جرَّاً. .  
 وعلى هذا الأساس أدرَجوا فيه معظمَ الطبيعيَّات والإلهيَّات وخاضوا في الرياضيَّات حتى كاد لا يتميَّز من الفلسفة لولا اشتمالُه على السمعيَّات، **وهذا هو علمُ الكلامِ المتأخِّرين**». .

ففي هذه المرحلة وَسِع موضوعُ علمِ الكلام من العقائد إلى المعلوم المؤدِّية إلى إثباتِ العقائد.

وعرَّفوا علمَ الكلام كما قال **برهان الدين لار**، في (تنقيح الكلام شرح التهذيب):«**بأنَّه علمٌ يبحث عن المعلوم من حيث إثباتُ العقائدِ الدينيَّة تعلُّقاً قريباً أو بعيداً**».

وهذا التعريف يشمل المرحلةَ الثالثةَ والرابعةَ؛ إذْ يشمل ردُّ الخصم بمسلَّماته العقليَّة الصرفةِ.

**لماذا هذه التوسعة في الموضوع؟** .  
 **الجواب:** لأنَّ الضرورةَ داعيةٌ؛ وإلَّا فـــ«علماءُ الإسلام ما صَنَعوا كُتُبَ العقائد لِيُثبِتوا في أنفسهم العلمَ باللهِ تعالى، **وإنَّما وَضعوها إرداعاً للخصومِ الَّذِين جَحَدوا الإلهَ، أو الصفاتِ، أو بعضَها، أو الرسالةَ، أو رسالةَ سيِّدنا محمَّدٍ ـ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ـ بخصوصِها، أو حدوثَ العالَمِ، أو الإعادةَ في هذه الأجسام بعد الموت، أو أنكروا النشرَ أو الحشرَ، أو نحوِ ذلك** ممَّا لا يَصدرُ إلَّا من المكذِّبين.

فطُلِب علماءُ الإسلام إقامةَ الأدلَّةِ القطعيَّةِ عليهم؛ لِيَرجعوا إلى اعتقادِ وجوبِ الإيمانِ بما جاءتْ به الرُّسُلُ عن ربِّهم لا غيرُ .

ومعلومٌ أنَّ الراجعَ بالبرهان أصحُّ من الراجعِ بالسيفِ؛ إذِ الخوفُ قد يَحمِلُ صاحبَه على النفاقِ، وصاحبُ البرهان ليس كذلك، فلذلك وضَعوا علمَ الجوهر والعَرَض وبسطوا في ذلك».   
فعلى ما سبَق تبيَّن أنَّ علمَ الكلامِ علمٌ أصيلٌ يتكلَّم بحججٍ عقليَّةٍ حسب الشُّبه الزمنيَّة.

**المحاضرةُ الثالثة**

**فائدةُ علمِ الكلامِ وموضوعُه وأسمائُه**

**تتكوَّن المحاضرة من ثلاثة محاور: :  
الأوَّل: فائدةُ علم الكلام.**

**الثاني: موضوعُ علم الكلام.**

**الثالث: أسماءُ علم الكلام.**

**ويمكن إرجاعُ أهميةِ علمِ الكلامِ وفوائده فيما يلي:** :  
 **أولاً :** أهميَّتُه بالنظر إلى الشخص العالِـم به ظاهرةٌ في قوَّته العقائدية بأنْ يَصيرَ الإيمانُ والتصديقُ بالأحكام الشرعية متيقَّناً مُحكَماً لا تُزلْزِله شُبَهُ المبطِلِين.

**ثانياً:** أهميَّتُه بالنظر إلى تكميلِ الغير: هي إرشادُ المسترشدِين بإيضاحِ الحجةِ لهم إلى عقائد الدين، وإلزامِ المعاندين بإقامة الحجة عليهم. .

**ثالثاً:** أهميته بالنسبة إلى أصول الإسلام، وهي: حفظُ قواعدِ الدين عن أنْ تُزلزلَها شُبَهُ المبطلِين. .   
 ولا يخلو زمانٌ عن وجودِ مبتدعٍ أو معاندٍ يتصدَّى لإغواءِ أهلِ الحقِّ بإفاضةِ الشبهةِ فيهم، تحتاج في الكشف عنها وإبطالِها إلى متكلِّمٍ حقيقيٍّ متْقِنٍ لهذا العلم. .  
 **رابعاً:** أهميتُه بالنظر إلى فروعِ هذا الدين. فالعلومُ الشرعيةُ وما فيها من الأحكام الجزئيةِ إنما تَثبُت وتتحقَّق بهذا العلم؛ لأنَّ ثبوتَها فرعُ ثبوتِ الحاكمِ والرسولِ، وهما إنَّما يَثبُتان بعلمِ الكلام.

**موضوعُ علم الكلام:** :   
 لكلِّ علمٍ موضوعُه كجسد الإنسان لعلم الطِّب، فإنَّه يُبحَث في علمِ الطبِّ عمَّا يَعرُضُ لجسدِ الإنسان من المرضِ والصحَّة. .   
 وكالكلِم الثلاث ـ اسم وفعل وحرف ـ لعلم النحو فإنَّه يُبحث فيه عمَّا يَعرُض لها من الإعراب والبناء. .   
 **فموضوعُه في عصر النبوَّة:** الإلهيَّاتُ والنبواتُ والسمعيَّات من حيث ردُّ المشركين وأهلِ الكتاب حولها؛ فإنَّه يُبحَث عمَّا يَعرض لها من حيث الصحة والبطلان. لذا سُمِّي بـ**(علمِ التوحيد والأسماء والصفات).** .  
  
 **وموضوعُه في عصر الفرق:** ما يتعلَّق بصفاتِ اللهِ إثباتاً ونفياً ومعنى التوحيد، والرؤية، وخلْقِ الأفعال وغيرها.

**وموضوعُه في عصر ترجمة الفلسفة كان واسعاً فموضوعُ علم الكلام**:

هو المعلوم من حيث يتعلَّقُ به إثباتُ العقائدِ الدينيَّةِ تعلُّقاً قريباً أو بعيداً. .  
**ــ تعلُّقاً قريباً** (أي: يتعلَّق بإثبات العقائد الدينيَّة مباشراً: كقِدَم اللهِ، ووحدانيَّتِه، وإثباتِ حدوث العالَم). .  
ــ **أو تعلُّقاً بعيداً**( أي: يبحث عن مواضعَ ليستْ من مواضع العقيدة مباشراً، بل تكون وسيلةً لإثباتِ العقائد الدينيَّة من بحوثٍ طبيعيَّةٍ ونفسيَّةٍ، ورياضيَّةٍ: :   
 ـ البحوث الطبيعيَّة مثل: تركُّب العالَم، الجوهر الفرد، ضرورة العالَم، وعدمُها. .   
 ــ النظريَّات التي تبحث في أصلِ الإنسان، كنظريَّة التطوُّر أهي صحيحة أم لا ؟.

**أسماء علم الكلام :**  
 يُلقَّب بـ(علم أُصول الدين) تحقيقاً، وبـ(علمِ التوحيد) مجازاً وتغليباً، و(علمِ الكلامِ) اصطلاحاً.   
 لماذا يلقَّب بـ(علم أُصول الدين وعلمِ العقائد)؟؛ لأنها تبحث عن إثبات أصول الإيمان.   
 ولماذا يلقَّب بـ(علمِ التوحيد وعلم الأسماء والصفات)؟؛ لأنَّها تَبحث عن إثبات ما يجب لله من الكمال وما يستحيل عليه من النقائص، وما يجوز له من الأفعال. .  
 ولماذا سُمِّي علم الكلام كلاماً؟ لأسبابٍ أهمُّها أنَّه يُورِث قدرةً على الكلام في تحقيق الشرعيات، ـ أي: في إظهار صدقِ حقائق الإيمان ـ وإلزام الخصوم. .

وتلك الأسماء هي الغالبة، لكن قد تُطلَق غير ما ذُكِر(الفقهُ الأكبرُ): ورَد هذا الإسم عن الإمام أَبي حنيفةَ، وهو مشهورٌ بأنَّه ذمَّ علمَ الكلامِ مع أنَّه أَلَّف الرسائلَ في علْمِ الكلامِ وســمَّاهُ بالفـــقهِ الأكبرِ. فذمُّه إنَّما هو لكلام المبتدعةِ لا مطلقاً كما سبَق.

فقال: إنَّ:«الفقْهَ في الدِّين أفضلُ من الفقه في الأحكامِ، ولَأنْ يَتفقهَ الرجُلُ كيف يَعبد ربَّه خيرٌ له من أنْ يجمعَ العلمَ الكثيرَ».

**وكثرةُ الأسماء لشيءٍ** تدلُّ على علوِّ منزلتِه ومكانته؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ منها يَبحث عن جانبٍ من جوانبِ ذلك العلمِ. .

**المحاضرة الرابعة**

**المصطــــلحات الكــــلاميَّة:**

**تفسيرُ الألفـــــاظ المـــحتاج إلـيــــها في هذا العلم:**   
 فمنها لفظُ**(العالَـم)** بفتحٍ، ومعناه كلُّ ما سوى اللهِ تعالى.   
 ومنها لفظُ**(الأزَل)،** ويَعنون به نفيَ الأوَّليَّة، والأزليُّ، أي: ليس له أوَّل. ومنها لفظُ**(القديم)،** ويَعنون به: الموجود الَّذي لا أوَّل لوجودِه، ويُسمُّونه أيضاً أزليَّاً.   
 ومنها لفظُ**(الدائم)،** ويَعنون به: الموجود الَّذي لا يَنقضي وجودُهُ، أي: لا يَلحقُه عدمٌ، ويُسمُّونه أيضاً الأبديَّ.   
 ومنها قولُهم:**(ما لايزال)**، ويَعنون به: ما له أوَّل، وهو ضِدُّ الأزل.

ومنها لفظُ**(الحادث)،** ويَعنون به: ما وُجِد بعد أنْ كان معدوماً. وقال الرازي:«مذهبُ جملة المسلمين أنَّ العالَـمَ محدَثٌ ليس بأزليٍّ».   
 ومنها لفظُ**(الجوهر)، وينقسم إلى قسمَين :  
 الأوَّل: الجوهر المادِّي:** ويَعنون به ما كان جِرْمُه يَشغل فراغاً بحيث أنْ يَمتنعَ أنْ يَحلَّ غيرَه حيث حلَّ هو، وهو معنى التحيُّز، وذلك كالإنسان والحجر لا كالعلمِ واللَّون.   
 وإنْ كان الجوهر دقيقاً بحيث انتهَى في الدِّقَّةِ إلى أنَّه لا يقبل الانقسامَ بوجهٍ فهو المسمَّى بالجوهر الفرد ـ والجزءِ لا يتجزَّأ ـ. وإنْ كان يَقبل الانقسامَ فهو المسمَّى بالجسم. .  
 **القسم الثاني: الجوهر المجرَّد: هو** ما ليس بمادَّةٍ، ولا لها خصائصُ المادَّةِ سوى الحدوث.

لابدَّ أنْ نعلمَ أنَّ الحادثَ عند علماء الكلام: ـ له معنى واحد عند المتكلِّمين ـ: هو الموجودُ بعد العدم.

**وأمَّا عند الفلاسفة: له معنيان:**

**الأوَّل:** **الحادث بالذات والزمان:** هو ما له أوَّلُ، كزيدٍ وعمروٍ.

**الحادث الذاتي: ما** لم يكن له أوَّلُ وهو المسمَّى بالحادث الذاتيِّ، القديمِ بالزمان، وذلك كالأفلاك والعقول عندهم، فهي حادثةٌ بالذات؛ لأنَّ الغيرَ وهو واجبُ الوجود أثَّر فيها بطريقِ التعليل.

**وقديمةٌ بالزمان**: أي: لا أوَّل لوجودِه؛ لأنَّ المعلولَ مقارنٌ للعلَّة في الوجود. وهذا الاعتقاد كفرٌ، لانعقادِ الإجماع على أنَّ ما سواه تعالى مخلوقٌ من العدم.

ولا تَشتبِهْ عليك:«عندما يقول بعضُ الأعلام إنَّ حدوثَ العالَـمِ زمانيٌّ، لا يريدون به إلَّا أنَّ عدمَه سبَق وجودَه.

وليس المرادُ بسبْقِ العدم هنا أنَّ عدَمَه كان في زمانٍ، وإلَّا لَزم قِدَمُ الزمان». وهو باطلٌ؛ لأنَّ الزمان يُقدَّر مع وجود الدنيا، ولا وجودَ له قبل خلْقِ العالَم.

ومنها: لفظُ(العرَض)، ويَعنون به: ما كانتْ ذاتُه لا تَشغلُ فراغاً، ولا له قيامٌ بنفسِه، وإنَّما يكون وجودُهُ تابعاً لوجودِ الجوهر، كالعلْم الَّذي قام بالجوهر، وكالحركةِ والسكون. .  
 ومنها:(الأكوان)، ويَعنون بها أعراضاً مخصوصةً، وهي: الحركةُ، والسكونُ، والاجتماعُ، والافتراقُ.   
 ومنها: لفظُ(الواجب)، ويَعنون به: ما لا يُتصوَّر في العقلِ عدمُه، إمَّا بالضرورةِ ـ أي: بالبداهة ـ كالتَّحيُّز للجوهر، وإمَّا بالنظر ـ والفكر ـ كوجودِه تعالى وثبوتِ صفاتِ ذاتِه.

ومنها لفظُ(المستحيل)، ويَعنون به: ما لا يُتصوَّر في العقلِ وجودُه، إمَّا بالضرورةِ كوجودِ الضِّدَّيْن في محلٍّ واحدٍ وزمنٍ واحدٍ، أو نظراً كوجودِ الشريك لله.

ومنها لفظُ(الجائز) ويَعنون به: ما لا يلزم من تصوُّرِ وجودِه ولا عدمِه محالٌ لذاتِه، إمَّا بالضرورة ـ والبداهة ـ كوجودِ زيدٍ ونحوِه، وإمَّا بالنظر كالثواب للمطيعين، والعقاب للكافرين.

**واحتُرِز بقولِه:(لذاته)** من صيرورةِ الجائزِ واجباً لأمرٍ خارجٍ عن ذاتِه، وهو تعلُّقُ علْمِ اللهِ بوجودِه كالجنَّةِ والنَّارِ، أو مستحيلاً كتعلُّقِ علمِ اللهِ بعدمِ وقوعِه كوجودِ الثوابِ للكافرين وحصولِ العقاب للمُطيعين.

ومنها: **الغيران:** كلُّ موجودَين ليس أحدُهما الآخر. أو كلُّ موجودَين يجوز الانفكاك بينهما.

ومنها: **المثلان:** كلُّ موجودَين متَّفقَين في جميع صفات الوجود غير التشخُّص.   
 ومنها: **الضدان:** كلُّ موجودَين لا يمكن اجتماعُها في آنٍ واحدٍ في مكانٍ واحدٍ إلَّا أنَّهما قد يرتفعان.   
 ومنها: **النيقيضان:** كلُّ موجودَين لا يمكن اجتماعُها ولا ارتفاعهما؛ لذا قيل: التناقض لا يجتمعان ولا يرتفعان. .

**واحتُرِز بقولِه:(لذاته)** من صيرورةِ الجائزِ واجباً لأمرٍ خارجٍ عن ذاتِه، وهو تعلُّقُ علْمِ اللهِ بوجودِه كالجنَّةِ والنَّارِ، أو مستحيلاً كتعلُّقِ علمِ اللهِ بعدمِ وقوعِه كوجودِ الثوابِ للكافرين وحصولِ العقاب للمُطيعين. .   
 ومنها: **الغيران:** كلُّ موجودَين ليس أحدُهما الآخر. أو كلُّ موجودَين يجوز الانفكاك بينهما. .   
 ومنها: **المِثْلان:** كلُّ موجودَين متَّفقَين في جميع صفات الوجود غير التشخُّص. .

ومنها: **الضِّدَّان:** كلُّ موجودَين لا يمكن اجتماعُها في آنٍ واحدٍ في مكانٍ واحدٍ إلَّا أنَّهما قد يرتفعان.

ومنها: **النيقيضان:** كلُّ موجودَين لا يمكن اجتماعُها ولا ارتفاعهما؛ لذا قيل: التناقض لا يجتمعان ولا يرتفعان.

**المحاضرة الخامسة**

**مناقشةٌ حول الإله في عصرِ الرسالةِ**

**قطبٌ واحدٌ:** :  
 إنَّ محورَ العبرةِ في مجال الاستدلال يَدور حول قطبٍ واحدٍ. مهما اختلفت النماذجُ وصياغةُ التعبير. ذلك القطبُ يرتكِز على جانبَين: :  
 **أوَّلهما:** إثباتُ كلِّ صفاتِ الجلالِ والعظمةِ لله. بحيث يؤمن العقلُ بوجوده، ويرفضُ أنْ يكون له شريكٌ. .  
 وكانت أدلَّةُ هذا الجانبِ مظاهرَ الكونِ والإيجاد، والإحياءِ والإماتة، وإنزالَ الماءِ وإنباتِ الزرع المختلِفِ الأحجام والألوان والطعوم يُسقَى بماءٍ واحد.

هذه مظاهرُ مشهودةٌ نُسِبتْ إلى الله، ولا أحدَ يُنازعه، والأثرُ يدلُّ على المؤثِّر وشاهدٌ له. .

وفي الوقت نفسه هذه الآثار من نِعَم اللهِ للإنسان ومن إحسانه له والإنسان مخلوقٌ على حبِّ منْ أحسن إليه، **إذن هو موجودٌ في الواقع، وفي العقل، وفي النفس والوجدان.** .   
 وأيضاً هذا الكونُ يَسير على نظامٍ دقيقٍ لا تخلُّف فيه، تصرُّفٌ منسوبٌ إلى إلهٍ عظيمِ القدرة، مطلقِ الإرادة، بلا احتياجٍ إلى شيءٍ سواه. .  
 فلو نُسِب الكونُ إليه واختَلَّ نظامُه فهو محتاجٌ إلى معينٍ يُعِينه لـكــــنَّ الواقعَ تأباه. .  
  
 **إذن هو واحدٌ ليس له شريكٌ في الواقع، وفي العقل، وفي النفس والوجدان.**

**ثانيهما:** إثباتُ صفاتِ العجز المطلقِ، والضعفِ الـمَهينِ عن كلِّ حركةٍ نافعةٍ أو ضارَّةٍ. لتلك الأصنامِ التي يَدعونها آلهةً. .  
 أو لها قدرةٌ محدودةٌ منافيةٌ لمعنى الإله كالشمس، **إذنْ فليست هي آلهةً في الواقع، وفي العقل، وفي النفس والوجدان. .**  
 وإذا ثبَت أنَّها ليستْ آلهةً؛ لأنَّها مخلوقةٌ لا خالقةٌ، مقدورٌ عليها لا قادرةٌ ــ ولا مماثلةَ بينهنَّ وبين الإلهِ الحق لا ذاتاً ولا صفاتاً ولا أفعالاً ــ. .  
 **إذن فهي ليستْ شريكةً لله في الواقع، وفي العقل، وفي النفس والوجدان**.

منهجُ علم الكلام في المناقشة تقديمُ نقطةِ الاتفاق على نقطةِ الاختلاف في الدليل للوصول إلى كشفِ الحقيقة. كما هو ظاهرٌ فيما يأتي: .   
 **المثالُ الأوَّل:** مجادلةُ سيِّدِنا إبراهيم، قدَّم ما هو مسلَّمٌ عندهم:[هَذَا رَبِّي]على نقطةِ الخلاف:[لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ]. .  
 وأيَّده سبحانه على هذا النوع من الجدال بقولِه:[وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ]الأنعام: 83. ..   
**ناقشهم عقليَّاً من جهتَين:**

**الجهةُ الأُولى:** هي أنَّها لا تستحقُّ العبادةَ، كيف أثبت عدم استحقاق الكواكب أنْ يُعبدْنَ؟، قال:

هذه الكائناتُ بعد وجودِها محتاجةٌ إلى مُوجِدِها كلَّ لحظةٍ؛ لأنَّ الخالقَ قيُّومُ مخلوقِه فكيف يَذهب الخالقُ ويَغيب عنها.

فإنَّه إذا غاب عنهم وترَكَهم لابدَّ أنْ يرجعوا إلى الفناءِ والعــــدم، ومادام الكونُ لا يَفنَى بعد غيابِ الكوكبِ فاذنْ هو ليس بخالقِهم وليس بقيُّومِ السماوات والأرض، وإذا لم يكنْ خالقُهم فلا يَستحِقُّ العبادةَ. .   
 إذِ العبادةُ أداءُ شكْرِ الخالقيَّة، فمَن ليس بخالقٍ ومدبِّرٍ للكون لا يستحقُّ العبادةَ، وهكذا الأَمر بالنسبة للشمس والقمر.

**الجهةُ الثانيةُ:** ناقشهم عقليَّاً على الخالق وعدم مماثلتِه بمخلوقاته:

لَمَّا رأى هذه علاماتِ التغيير على الكواكب والشمسِ والقمر قال:[لا أُحِبُّ الآفِلِينَ]، فبيَّن أنَّ ما جاز عليه تلك الصفات لا يكون خالقاً وربَّاً. .   
 فاستَدلَّ بأُفُولها على حدوثِها، ثم استَدلَّ بحدوثِها على وجودِ مُحدِثِها. .  
 ثمَّ استدلَّ بأنَّ الخالق لابدَّ أنْ يكون مخالفاً للحوادثات من كلِّ وجهٍ: :  
 وهذا ما أخبر به اللهُ تعالى بقوله:[يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا]. . ثم إنَّ اللهَ تعالى عظَّم شأنَه بسببِ إلزام الخصم بمسلَّماتِه فقال:[وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ]. .  
**فوَصل علماءُ الكلام من خلال هذه المجادلة إلى:**

«أنَّ الحركةَ والسكونَ والذِّهاب والمجيءَ والكونَ في المكانِ والاجتماعِ والافتراقِ والقربِ والبُعْدِ من طريقِ المسافةِ والاتصالِ والانفصالِ والحجمِ والجِرْمِ والجُثَّةِ والصورةِ والحيِّزِ والمِقدارِ والنواحي والأقطابِ والجوانبِ والجهاتِ.كلَّها لا تجوزُ عليه سبحانه، لأنَّ جميعَها يوجِبُ الحدَّ ـ والحجمَ ـ والنهاية».

**كيف استَنبط علماءُ الكلام هذه العيوب؟** :  
 يقولون:«لا عيبَ يقدحُ في إلهيَّةِ هذه الكواكبَ إلَّا أنَّها أجسامٌ فتكون مؤلَّفةً مِنَ الأجزاءِ والأبعاضِ، وأيضاً، إنَّها متناهِيةٌ ومحدودةٌ، وأيضاً إنَّها متغيِّرةٌ ومتحرِّكةٌ ومُنتقِلةٌ من حالٍ إلى حالٍ. .   
 فهذه الأشياءُ إنْ لم تكنْ عُيوباً في الإلهيَّةِ امتَنع الطَّعنُ في إِلَهِيَّتِها، وإنْ كانت عُيوباً في الإلَهيَّةِ وجَب تَنزيهُ الإلَهِ عنها بأسْرها. .   
 فوجَب الجزْمُ بأنَّ إلَهَ الْعالَمِ والسَّماءِ والأرضِ مُنزَّهٌ عنِ الجسميَّةِ والأعضاءِ والأبعاضِ والحدِّ والنِّهايةِ والمكان والجهةِ». .  
 فوصل علماءُ الكلامِ بمنهج إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى أنَّ ما جرى على الممكنات فهو محالٌ على الله.

**المثالُ الثاني:** :   
 يناقش القرآنُ مَن زعم أنَّ عيسى ابنَ الله، لأنه وُلِد من غيرِ أبٍ، فبدأ بنقطة الاتفاق هو بشريةُ آدم على نقطة الاختلاف هي بنوُّةُ عيسى كما قال: [إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ]آل عمران:59. .  
 **كأنَّه يقول:** فمَن كان قادراً على خلْق الإنسان بلا أبٍ وأمٍّ هو قادرٌ على خلْقِه بلا أبٍ بطريق أولى. .  
 فلِمَ تؤمنون ببشرية آدم وتنكرون بشرية عيسى؟!!، مع أنَّ الأوَّلَ أغربُ؟!!.   
 فلــو كان الــولادة بلا أبٍ مستلزم لَجَعل الانســانَ إبناً لله فآدم أولى بالبُنُوَّة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ. .  
 فما دمتم تعترفون بمخلوقيةِ آدمَ فالإقرارُ بمخلوقيةِ عيسى أَوْلى.

**المثال الثالث:** :  
 مجادلة الهدهد:[أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ]. وهذه الآيات دالَّةٌ على وصفِ الله تعالى بالقدرة والعلم. .  
**وتخليصُ الدلالة على قانونِ الجدل على وجهَين:** :   
 **الأول: الإلهُ:** ويجب أنْ يكونَ قادراً على إخراجِ الخبء، ويكون عالماً بالخفيات، والشمس ليست كذلك، فهى لا تكون الهاً. .  
 أما أنه سبحانه يجب أن يكون قادراً عالماً على الوجه المذكور، فكما أنَّه واجبُ الوجودِ لذاته، فلا تختصُّ قدرتُهُ وعلمْهُ ببعضِ المقدوراتِ وبعضِ المعلومات دون البعض. .

وأما أنَّ الشمسَ ليست كذلك فلأنها جسمٌ متناهٍ، وكلُّ ما كان متناهياً فى الذات كان منتناهياً فى الصفات. .  
 وإذا كان الأمر كذلك امتَنع أنْ تكونَ الشمسُ قادرةً على إخراجِ الخبء وعلمَه بالخفيات. .   
 وإذا لم يعلم من حال الخفيَّات ولم تكن قادرة على جلب منافعها ودفع المضار فهى ليست الهاً. .  
**المثالُ الرابعُ:** :  
 ما يقول ــ سبحانه ــ على لسان رسولهـ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ـ في الرَّدِّ على المشركين عابدي الأصنام:[وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ]لقمان:25 .   
 قدَّم نقطةَ الاتفاقِ وهو الاعتراف بخالقِ السماواتِ والأرضِ على نقطةِ الاختلاف وهو استحاق العبادة لغير الله. فتكون صورةُ الجدال كالتالي: :  
 فإنْ جلَس معك كافرٌ مشركٌ وثنيٌّ، تقولُ له: مَن خلَق السماوات والأرض؟ فيقول: الله؛ لأنَّهم ما ينكرون اللهَ كخالقٍ للسموات والأرض.

فتقول: أنا وإيَّاك متَّفِقَين أنَّ اللهَ خلَق السماوات والأرضِ. ومن هذا الاتفاق تذهب إلى نقطة الاختلاف.   
 فتتدرَّج معه، ثمَّ تقول: فمَن يَستحقُّ العبادةَ بعد ذلك؟ حينها يقف!! وربما يُجيبك بأحد جوابَين ::   
 إمَّا أنْ يقولَ: يستحقُّها اللهُ. فالحمدُ لله. أو يقول: يستحقُّها الوَثن.  
 فتقول: الوثنُ لا يسمع، ولا يُبصر، ولا يَرى، ولا يَرزق، ولا يخلُق، فكيف يستحقُّ العبادةَ؟! .  
 حينها سوف يُجيبك بالحقِّ ـ أي: كيف يكون الإلهُ أحطَّ مرتبةً من عابديه؟!! ـ، أو ركِب العنادَ فتُرِك. .

**المحاضرة السادسة**

**مفهوم الإلهِ**

**من خلال المادَّة**

**بين الإلهيِّين والماديِّين**

**تتكوَّن المحاضرةُ من عدَّةِ محاوِرَ:** :  
1ـ المادَّةُ عند الفلسفةِ القديمة(اليونانيَّة). .  
2ـ المادَّةُ عند الفلسفةِ الحديثة. .  
3ـ المادَّةُ عند علماءِ الكلام(فلسفةِ الإسلام). .  
4ـ حوارٌ بين الإلهيين والماديِّين حول المادَّة. .

**عرْضُ الأفكار حول المادَّة: :** لا شكَّ أنَّ أشياءَ الكونِ كلَّها تحتوي على أربعةِ أشياء: **المادَّةِ، والصورةِ الجسميَّةِ، والصورةِ النوعيَّةِ، والصورةِ الشخصيَّة. ولا خلافَ في تسليمها.** وإنَّما الخلافُ في أنَّ الأربعةَ كلَّها قديمةً، أو كلَّها حادثةً، أو بعضُها قديمٌ وبعضُها حادثٌ. .  
 فالفلسفةُ القديمةُ تقول: إنَّ المادَّةَ والصورةَ الجسميَّةَ قديمتان، وإنَّ الصورةَ النوعيَّةَ والشخصيَّةَ حادثتان. . والفلسفةُ الحديثةُ تقول: إنَّ المادَّةَ وحدَها قديمةٌ، أمَّا الأشياء الثلاثةِ الأُخرى حادثةٌ. .  
 أمَّا علمُ الكلام ـ فلسفة الإسلام ـ فهو يقول: إنَّ الأشياءَ الأربعةَ كلَّها وغيرَها جميعاً حادثةٌ، وإنَّما القديمُ هو ذاتُ اللهِ تعالى، والقولُ بقِدَمِ شيءٍ غيرَه تعالى شركٌ.   
**مناقشةُ الآراء:** :  
 من المسلَّم به لدى الجميع أنَّ الشيءَ إذا ثَبت ثَبت بلوازمه، واللازم هو الشيءُ الَّذي لا ينفكُّ من الملزوم، مثلاً: :  
 الإنسانُ يحتاج في وجودِه إلى المكان، ولا يجوز أنْ يقولَ بوجود الإنسان ولا يقول بوجود المكان. وكذا المادَّة لا وجودَ لها بدون هذه الصوَر.

**دليلُ الفلسفة القديمة: :  
 قالتْ: إنَّ العالَـمَ مركَّبٌ من الهَيولَى ـ المادَّة ـ ومن الصورةِ الجسميَّة. .** وهنا نخاطب القائلَ بقِـدَمِ المادَّةَ والصورةِ، لا يكتفي مجرَّدُ القول بقِـدَمِها؛ لأنَّ الصورةَ الجسميَّةَ تستلزم الصورةَ النوعيَّةَ، ولا يمكن التخلُّصُ بقِـدَمِ الصورةِ النوعيَّةِ، لأنَّها أيضاً تستلزم الصورةَ الشخصيَّة. .  
 لو سلَّم الخصمُ قِـدَمَ الصورةِ النوعيَّةِ وجَب عليه أن يُسلِّمَ قِـدَمَ الصورةِ الشخصيَّةِ. .  
 أي: إنَّ زيداً ـ مثلاً ـ بوجودِه الآن وبهيئتِه ظلَّ قديماً منذ الأزل. وهذا الموقف من البطلان واللامعقوليَّة بمكانٍ يعرفه الجميعُ؛ ولذلك فلا يقول به أيٌّ من الفلسفَتَين: القديمة والحديثة. .

وإذا ثَبتَ كونُ الصورةِ النوعيَّةِ غيرَ موجودٍ أزلاً لتغيُّرِها ثَبت كونُ الشيءِ الَّذي يتوقَّف عليها غيرُ موجودٍ كذلك، وهو الصورةُ الجسميَّة. .   
 وإذا ثَبت انعدامُ الصورةِ الجسميَّةِ أزلاً ثَبت انعدامُ ما يتوقَّف عليها، وهو المادَّةُ، فوَجب الإقرارُ بكونِ المادَّةِ أيضاً حادثةً. .  
 وإذا ثَبت بطلانُ قِـدَمِ الصورةِ ثَبت بُطلانُ قِـدَمِ المادَّة؛ إذْ هذه الأشياء يستلزم بعضُها بعضاً. أي: لم تتحقَّقْ أحدٌ من الصوَر بدون الأُخرى في آنٍ من الآنات.

**دليلُ الفلسفة الحديثة:** :   
 **قالت: إنَّ المادَّةَ وحدَها قديمةٌ، أمَّا الأشياءَ الثلاثةُ الأُخرى فهي حادثةٌ.**   
 وهذا القول يؤدِّي إلى أنَّ المادَّةَ ظلَّتْ مجرَّدةً من الصوَر الجسميَّةِ تجريداً تامَّاً لمدَّةٍ من الزمانِ، وهذا يؤدِّي إلى أنَّها ظلَّتْ مدَّةً مجرَّدةً من الوجودِ.   
 أي: وجودُ شيءٍ بدونِ الصورةِ معناه أنَّ فيه قابليَّةُ الوجودِ وأنَّه ليس بموجودٍ فعلاً، **وذلك يستلزم اجتماعَ الضدَّين. .**    
 وذلك أنَّ خلوَّ المادَّةِ في الحقيقةِ عنِ الصورةِ مستحيلٌ، حيث إنَّ وجودَها بالفعل معناه أنْ تَحصلَ لها صورةٌ. .

فإذا اُعتُبرتْ خاليةً من الصورةِ واعتُبِر في نفسِ الوقتِ أنَّها ـ المادَّةَ ـ موجودةً، فلم يَعنِ إلَّا أنَّها موجودةٌ بالفعل وليستْ موجودةً بالفعل في وقتٍ واحدٍ.  **دليلٌ آخرُ لهم في أزليَّةِ المادَّةِ:** :   
 تقول: إنَّنا لا نرَى شيئاً في الدنيا ينعدم كليَّاً، وكلُّ ما يَـحدثُ هو تغيُّرُ الصورةِ بأُخرَى، واستنبطوا من ذلك أنَّ المادَّةَ قديمةٌ. .  
 والجوابُ: أنَّ ذلك مستبعَدٌ وليس بممتنعٍ مستحيلٍ، والفرقُ بين الاستبعاد والاستحالةِ، أنَّ المستبعدَ يمكن وجودُه وإنْ تعجبْ منه عقلُ الإنسانِ، والمستحيلُ لا يمكن وجودُه أبداً. .

**دليلُ فلسفة الإسلام:** :  
 **تقول: إنَّ المادَّةَ والصورَ االثلاثةَ كلَّها حادثةٌ.** .  
 يقول علماءُ الكلام: بموجِب(إذا ثَبت الشيءُ ثَبت بلوازمِه)، أي: إذا ثَبت قِدَمُ المادَّةِ لا بدَّ أنْ يَثبتَ قِـدَمُ الصوَرُ كلَّها معها. .  
 لكنْ لم تثبتْ قِدمُ الصورةِ النوعيَّةِ والشخصيَّةِ باعترافِ الكلِّ.   
 وبموجِبِ(إنَّ انتفاءَ اللازم يَستلزم انتفاءَ الملزوم)، يجب القولُ بحدوثِ المادَّةِ؛ لأنَّ الصورةَ النوعيَّةَ والشخصيَّةَ الازمتَين انتَفى قِـدَمُهما. .  
 فحدوثُ أحدها يستلزم حدوثَ الأُخرى؛ لعدم انفكاك بعضِها عن بعضٍ.

**عدمَ الرؤية ليس دليلَ عدمِ الوقوع:** :  
 إنَّ عدمَ مشاهدتنا لظهورِ شيءٍ من مجرَّدِ العدمِ إلى الوجودِ، أو عدمَ رؤيتنا تحوُّلَ شيءٍ بعد وجودِه إلى العدم المجرَّدِ. لا يَثبتان أنَّ ذلك مستحيلٌ ممتنعٌ.   
 إنَّ المستحيلَ ليس إلَّا في اجتماع النقيضَين، فكلُّ شيءٍ يستلزم اجتماعَ النقيضَين فهو ممتنعٌ في الواقع، وإلَّا فهو ممكنٌ يجوز وقوعُه. .  
 والممكنُ قد يكون عاديَّاً وقد يكون مستبعداً لكنْ ليس مستحيلاً وجودُه وإنْ تعجبْ منه عقلُ الإنسانِ. أمَّا المستحيلُ لا يمكن وجودُه أبداً. .

**المحاضرة السابعة**

**الإلهُ من خلال**

**(لاشيءَ إلَّا له علَّةٌ)**

**بين المتكلِّمين والماديِّين**

**تتكوَّن المحاضرةُ من عدَّةِ محاوِرَ:** :  
1ـ (لا شيءَ إلَّا له علَّة) في الفلسفةِ الحديثة. .  
2ـ المادَّةُ ليستْ لها علَّة عند الفلسفةِ الحديثة. .  
3ـ ما لا علَّةَ له عند علماءِ الكلام(فلسفةِ الإسلام). .  
4ـ المقارنة بين الفكرَتَين.

**1ـ (لا شيءَ إلَّا له علَّة) عند الفلسفةِ الحديثة.** .   
 إنَّ الماديِّين يقولون:(لا شيءَ إلَّا له علَّةٌ)، وعلى هذا إنَّ القولَ بالعلَّة الأُولَى التي ليستْ لها علَّةٌ هدمٌ لهذه القاعدة. وعلى هذه الفكرةِ أنكَروا الوجودَ الإلهيَّ.   
**لكنْ هذه القاعدةُ متناقضةٌ مع قولهم بأزليَّة المادَّة:** :  
 إذِ المادَّةَ عند هؤلاءِ موصوفةٌ ـ لا محالةَ ـ بصفةِ الأزليَّةِ؛ لأنَّها لو كانتْ محدَثةً من خالقٍ، لَكان ذلك تناقُضاً صارخاً مع فكرتِهم المحوريَّةِ في إنكارِ الوجودِ الإلهيِّ.   
 فإذن القولُ بمادَّةٍ موجودةٍ أزليَّةٍ يُساوِي ـ تماماً ـ القولَ بموجودٍ لا علَّةَ له.

**2ـ (المادَّةُ ليستْ لها علَّة) ومناقشتُها.** .   
 فثَبت مما سبَق أنَّ الماديُّون يقولون بموجودٍ ماديٍّ أزليٍّ لم يوجِدْه مُوجِدٌ، ويَعترفونَ بكلِّ حرفٍ في هذه العبارة السابقةِ ويؤكِّدون عليها. .   
 **وهنا مَبعثُ الدهشةِ والعجب،** لِماذا يستلزم القولُ بوجودِ إلهٍ أزليٍّ، إشكاليَّةَ البحثِ عن علَّتِه، ولا يستلزم القولُ بوجودِ مادَّةٍ أزليَّةٍ إشكاليَّةَ البحث عن علَّةٍ لها؟!.   
 لِماذا يَرفضُ الماديُّون أزليَّةَ الخالقِ ويُرتِّبون عليها إشكالاتٍ عقليَّةً، ويرتضون أزليَّةَ المادَّةِ ويدافعون عنها بضروبٍ مغشوشةٍ من الحُجج والبراهين؟!.

لِماذا لا تحتاج المادَّةُ ـ على فرْضِ أزليَّتِها ـ إلى علَّةٍ؟ ويحتاجُ الخالقُ إلى علَّةٍ؟!.  
 لِماذا يقنع الفيلسوف عن إنكارِ الخالق لمجرَّدِ أنْ يقرأ عبارةَ: ومَن(خلَق الله)، ولا يَمتحن إيمانَه بالمادَّة الصمَّاء؟ بعبارةٍ مماثلةٍ، تقول له:(ومَن خلَق المادَّةَ)؟!   
**3ـ ما لا علَّةَ له عند علماءِ الكلام(فلسفةِ الإسلام).** .  
 إنَّ للفيلسوف الإلهيِّ أنْ يُلزِمَ الفيلسوفَ الماديَّ بكلِّ مآخِذِه على برهانِ العلَّةِ الأُولَى، ويَعكسُها عليه في قولِه بالمادَّة الأزليَّة.

وهذه حقيقةٌ لا يفطنُ كثيرون وهم بصددِ النقاشِ بين منكري الأُلوهيَّة ومُثبِتيها.   
 ذلك أنَّ كلاَّ من الفيلسوف الإلهيِّ والفيلسوف الماديِّ يؤمن بمبدأٍ أزليٍّ لا موجِدَ له في تفسيرِ الكون. وهذا هو محلُّ الاتِّفاقِ بينهما. .  
 أمَّا محلُّ الخلافِ في صفة هذا الأزليِّ: فالفيلسوفُ الإلهيُّ يعتقد أنَّ هذا المبدأَ موجودٌ عالِمٌ مريدٌ قادرٌ. .  
 بينما يَعتقدُ الماديُّ أنَّ هذا المبدأَ موجودٌ أصمَّ لا يُحسُّ ولا يَعِي ولا يَعقل.

**4ـ المقارنة بين المتكلِّمين والماديِّين:** :  
 **وهنا يتساءل المرءُ بحقٍّ:** إذا كان الاحتمالُ العقليُّ قد انتهى بنا إلى أنَّ مبدأ هذا الكون: .  
 إمَّا أنْ يكونَ جماداً مسلوبَ الوعيِ والفكرِ والتدبير. .  
 وإمَّا أنْ يكونَ ذاتاً لها علمٌ ولها مشيئةٌ وإرادةٌ وقدرةٌ على الفعل والإيجاد. .  
 فأيُّ الاحتمالَين أولَى عند العقلِ بالقبول؟!!. .  
 **إنِ اخترنا الاحتمالَ الأوَّل: :**  
 فكيف يُجاب على الآلاف من التساؤلات، فكيف تعطي المادَّةَ الصماء الفاقدةَ للحياة والعلمِ الحياةَ للكائناتِ الحيَّة، والوعيَ والفكرَ للإنسان؟!!.   
لذا فإنَّ العقلَ إذا كان عقلاً سويَّاً لا يتردَّد في استبعادِ هذا الاحتمال؛ لأنَّه يُثير صعوباتٍ لا يَجد العقلُ لها حلولاً. .  
 **أمَّا الاحتمالُ الثاني:** ـ أي: موجودٌ عالِمٌ مريدٌ قادرٌ ـ فإنَّ العقلَ لا يجد معه حرَجاً من ذلك النوع الَّذي يُثيرُه الاحتمالُ الأوَّل. .  
 بل مع هذا الاحتمال الثاني يَطمئنُّ إلى إجاباتٍ تزول معها كلُّ علاماتِ الاستفهام المحيِّرةِ التي كانتْ تتزاحم في الافتراض الأوَّل. .  
 إنَّ إنكارَ الخالقِ العليمِ القدير، وإحلالَ مادَّةٍ صمَّاءَ محلَّه، لا تَعلم ولا تسمع ولا تُبصِر، فوق أنَّه لا يُحِلُّ مشكلةَ تفسيرِ الكون، فإنَّه يَزيدها تعقيداً وحيرةً وغموضاً كما سبَق. .

**وفي الختام نقول: :   
 هؤلاء المنكرون أعطوا وجوداً أزليَّاً للمادَّة الصماء العمياء، فقد ارتكب ظلماً عظيماً في حقِّ اللهِ. وفي الوقت نفسِه ادَّعَوا أنَّهم وَصلوا علميَّاً إلى هذه النتيجة، وهذا ظَلمٌ عظيمٌ في حقِّ العلمِ أيضاً. .**